فمادام الله قد قال : « ولكل جعلنا موالى مما ترك الوالدان والأقربون » . أى ولكل إنسان من الموالى شيء من آثار ما ترك الوالدان والأقربون . فإياكم أن تقولوا : هم ذهبوا فلا نعطيهم شيئا ، لا.ما كانوا متفقين فيه وعقدوا أيمانهم عليه آتوهم نصيبهم مصداقاً لقوله الحق : « فآتوهم نصيبهم إن الله كان على كل شيء شهيدا » فالله شهيد على هذه . وشهيد على أنكم تنفذون أو لا تنفذون .

وبعد ذلك جاء ليتكلم فى قضية متصلة بقول الحق سبحانه : « ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض » فقال :

﴿ ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ ۚ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ ۚ وَٱلَّٰتِى تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِى ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّ ۖ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُواْ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ﴿٣٤﴾ ﴾

«الرجال قوامون على النساء»، أول ما نلتفت إليه أن بعضهم لم يفسروا الآية إلاّ على الرجل وزوجته على الرغم من أنّ الآية تكلمت عن مطلق رجال ومطلق نساء ، فليست الآية مقصورة على الرجل وزوجه ، فالأب قوام على البنات ،والأخ على أخواته . ولنفهم أولاً « الرجال قوامون » وماذا تعنى ؟ ونظر أهذه تعطى النساء التفوق والمر كز

أم تعطيهن التعب . والحق سبحانه وتعالى يطلب منا أن نحترم قضية كونية ، فهو الخالق الذى أحسن كل شيء خلقه وأوضح القضية الإيمانية « الرجال قوامون على النساء » والذى يخالف فيها عليه أن يوضح - إن وجد - ما يؤدى إلى المخالفة ، والمرأة التى تخاف من هذه الآية ،نجد أنها لو لم ترزق بولد ذكر لغضبت ، وإذا سألناها : لماذاإذن ؟ تقول : أريد ابنًا ليحمينا . كيف وأنت تعارضين فى هذا الأمر ؟.

ولنفهم ما معنى « قوّام » ، القوّام هو المبالغ فى القيام . وجاء الحق هنا بالقيام الذى فيه تعب ، وعندما تقول : فلان يقوم على القوم ؛ أى لا يرتاح أبدا . إذن فلماذا تأخذ « قوامون على النساء » على أنه كتم أنفاس ؟ لماذا لا تأخذها على أنه سعى فى مصالحهن ؟ فالرجل مكلف بمهمة القيام على النساء ، أى أن يقوم بأداء ما يصلح الأمر . ونجد أن الحق جاء بكلمة « الرجال » على عمومها ، وكلمة « النساء » على عمومها ، وشيء واحد تكلم فيه بعد ذلك فى قوله : « بما فضل الله بعضهم على بعض » فما وجه التفضيل ؟.

إن وجه التفضيل أن الرجل له الكدح وله الضرب فى الأرض وله السعى على المعاش ، وذلك حتى يكفل للمرأة سبل الحياة اللائقة عندما يقوم برعايتها . وفى قصة آدم عليه السلام لنا المثل ، حين حذر الحق سبحانه آدم وزوجته من الشيطان ، إبليس الذى دُعى إلى السجود مع الملائكة لآدم فأبى ، وبذلك عرفنا العداوة المسبقة من إبليس لآدم ، وحيثيتها :

﴿ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴾

(من الآية ٦١ سورة الاسراء)

وأوضح الحق لآدم : إذا هبطت إلى الأرض فاذكر هذه العداوة . وأعلم أنه لن يتركك ، وسيظل يغويك ويغريك ؛ لأنه لا يريد أن يكون عاصياً بمفرده ، بل يريد أن يضم إليه آخرين من الجنس الذى أبى أن يسجد هو لأبيهم آدم يريد أن يغويهم ، كما حاول إغواء آدم :

﴿ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ ﴾

(من الآية ١١٧ سورة طه)

وهل قال الحق بعدها : فتشقيا أو فتشقى ؟ قال سبحانه :

﴿ فَتَشْقَىٰٓ ﴾

(من الآية ١١٧ سورة طه)

فساعة جاء الشقاء فى الأرض والكفاح ستر المرأة وكان الخطاب للرجل . وهذا يدل على أن القوامة تحتاج إلى تعب ، وإلى جهد ، وإلى سعى ، وهذه المهمة تكون للرجل .

ونلحظ أنه ساعة التفضيل قال : « الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض » لقد جاء بـ « بعضهم » لأنه ساعة فضل الرجل لأنه قوّام فضل المرأة أيضا لشىء آخر وهو كونها السكن حين يستريح عندها الرجل وتقوم بمهمتها .

ثم تأتى حيثية القوامة : « وبما أنفقوا من أموالهم » . والمال يأتى نتيجة الحركة ونتيجة التعب ، فالذى يتعب نقول له : أنت قوّام ، إذن فالمرأة يجب أن تفرح بذلك ؛ لأنه سبحانه أعطى المشقة وأعطى التعب للجنس المؤهل لذلك . ولكن مهمتها وإن كانت مهمة عظيمة إلا أنها تتناسب والخصلة المطلوبة أولاً فيها : الرقة والحنان والعطف والوداعة . فلم يأت بمثل هذا ناحية الرجل ، لأن الكسب لا يريد هذه الامور ، بل يحتاج إلى القوة والعزم والشدة ، فقول الله :« قوامون » يعنى مبالغين فى القيام على أمور النساء .

ويوضح للنساء : لا تذكرن فقط أنها حكاية زوج وزوجة . قدرن أن القيام يكون على أمر البنات والأخوات والأمهات . فلا يصح أن تأخذ « قوام » على أنها السيطرة ؛ لأن مهمة القيام جاءت للرجل بمشقة ، وهى مهمة صعبة عليه أن يبالغ فى القيام على أمر من يتولى شئونهن .

« وبما أنفقوا من أموالهم » فإذا كان الزواج متعة للأنثى وللذكر . والاثنان يستمتعان ويريدان استبقاء النوع فى الذرية ، فما دامت المتعة مشتركة وطلب الذرية أيضا مشتركا فالتبعات التى تترتب على ذلك لم تقع على كل منهما ، ولكنها جاءت على

الرجل فقط . . . صداقاً ونفقة حتى ولو كانت المرأة غنية لا يفرض عليها الشرع حتى أن تقرض زوجها .

إذن فقوامة الرجال جاءت للنساء براحة ومنعت عنهن المتاعب . فلماذا تحزن المرأة منها ؟ فـ « الرجال قوامون على النساء » أى قائمون إقامة دائمة ، لأنه لا يقال قوّام لمطلق قائم ، فالقائم يؤدى مهمة لمرة واحدة ، لكن « قوّام » تعنى أنه مستمر فى القوامة .

« الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم » وما دمنا نكدح ونتعب للمرأة فلابد أن تكون للمرأة مهمة توازى ذلك وهى أن تكون سكناً له ، وهذه فيها تفضيل أيضاً .

لقد قدم الحق سبحانه وتعالى فى صدر الآية مقدمة بحكم يجب أن يُلتزم به؛لأنه حكم الخالق الذى أحسن كل شىء خلقه ، فأوضح القضية الإيمانية : « الرجال قوامون على النساء » ثم جاء بالحيثيات فقال : « بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم » ويتابع الحق : « فالصالحات قانتات حافظات للغيب » والمرأة الصالحة هى المرأة التى استقامت على المنهج الذى وضعه لها من خلقها فى نوعها ، فمادامت هى صالحة تكون قانتة ، والقنوت هو دوام الطاعة لله ، ومنه قنوت الفجر الذى نقنته ، وندعو ونقف مدة أطول فى الصلاة التى فيها قنوت .

والمرأة القانتة خاضعة لله ، إذن فحين تكون خاضعة لله تلتزم منهج الله وأمره فيما حكم به من أن الرجال قوامون على النساء ، « فالصالحات قانتات حافظات للغيب » وحافظات للغيب تدل على سلامة العفة . فالمرأة حين يغيب عنها الراعى لها والحامى لعرضها كالأب بالنسبة للبنت والابن بالنسبة للأم ، والزوج بالنسبة للزوجة ، فكل امرأة فى ولاية أحد لا بد أن تحفظ غيبته ؛ ولذلك فالرسول صلى الله عليه وسلم حينما حدد المرأة الصالحة قال فى حديث عن الدنيا :

« الدنيا كلها متاع ، وخير متاع الدنيا المرأة الصالحة »[1]

(١) رواه أحمد ومسلم والنسائى عن ابن عمرو .

لقد وضع صلى الله عليه وسلم قانوناً للمرأة الصالحة يقول فيه :

« خير النساء التى تسرّه إذا نظر وتطيعه إذا أمر ولا تخالفه فى نفسها ولا مالها بما يكره »[1] .

وأى شيء يحتاج الرجل إليه أحسن من ذلك . وكلمة « إن نظرت إليها سرّتك » إياك أن توجهها ناحية الجمال فقط ، جمال المبنى ، لا ، فساعة تراها اجمع كل صفات الخير فيها ولا تأخذ صفة وتترك صفة ؛ لأن النبى صلى الله عليه وسلم حذرنا من أن نأخذ صفة فى المرأة ونترك صفة أخرى ، بل لابد أن نأخذها فى مجموع صفاتها . فقال :

« تنكح المرأة لأربع : لمالها ولحسبها ولجمالها ولدينها ، فاظفر بذات الدين تربت يداك »[2] .

المطلوب ألا تنظر إلى زاوية واحدة فى الجمال ، بل انظر إلى كل الزوايا ، فلو نظرت إلى الزاوية التى تشغل الناس ، الزاوية الجمالية ، لوجدتها أقل الزوايا بالنسبة إلى تكوين المرأة ؛ لأن عمر هذه المسألة « شهر عسل » ـ كما يقولون ـ وتنتهى ، ثم بعد ذلك تبدو المقومات الأخرى . فإن دخلت على مقوم واحد وهى أن تكون جميلة فأنت تخدع نفسك ، وتظن أنك تريدها سيدة صالون ! ونقول لك : هذه الصفة أمدها بسيط فى عمر الزمن ، لكن ما يبقى لك هو أن تكون أمينة ، أن تكون مخلصة ، أن تكون مدبرة ؛ ولذلك فالفشل ينشأ فى الأسرة من أن الرجال يدخلون على الزواج بمقياس واحد هو مقياس جمال البنية ، وهذا المقياس الواحد عمره قصير، يذهب بعد فترة وتهدأ شِرَّته . وبعد ذلك تستيقظ عيون الرجل لتتطلع إلى نواحى الجمال الأخرى ، فلا يجدها . فيحدث الفشل ؛ لذلك لابد أن تأخذ مجموعة الزوايا كلها . إياك أن تأخذ زاوية واحدة ،وخير الزوايا أن يكون لها دين . وكذلك المقياس بالنسبة لقبول المرأة للزوج ، أيضاً خير الزوايا أن يكون له دين ، قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ :

(١) رواه أحمد والنسائى والحاكم .

(٢) رواه البخارى ومسلم وأبو داود والنسائى وابن ماجه .

« إذا أتاكم من ترضون خلقه ودينه فزوجوه إن لا تفعلوا تكن فتنة فى الأرض وفساد عريض »[١] .

وعندما استشار رجل سيدنا الحسن بن على ـ رضى الله عنهما ـ قال : زَوِّجها من ذى الدين ، إن أحبها أكرمها ، وإن كرهها لم يظلمها .

إذن فالدين يرشدنا : لا بد أن ننظر إلى المسألة التى سيكون لها عمر طويل فى الحياة الممتدة ، وبعد ذلك إذا أرادت أن تكون ناجحة فعليها أن ترى إطار نوعيتها وتنبغ فيه ، ومن الممكن إن كان عندها وقت أن توسع دائرة مهمتها فى بيتها ، فإذا كان عندها أولاد فعليها أن تتعلم الحياكة وتقوم بتفصيل وحياكة ملابسها وملابس أولادها فتوفر النقود ، أو تتعلم التطريز كى لا تدفع أجرة ، أو تتعلم التمريض حتى إذا مرض ولدها استطاعت أن تمرضه وترعاه ، أن تتعلم كى تغنى عن مدرس خصوصى يأخذ نقوداً من دخل الأسرة ، وإن بقى عندها وقت فلتتعلم السباكة لتوفر أجرة السباك إذا فسد صنبور ماء ، أو تتعلم إصلاح الكهرباء لتصلح مفتاح الإضاءة . وتستطيع المرأة أن تقوم بأى عمل وهى جالسة فى بيتها وتوفر دخلاً لتقابل به المهام التى لا تقدر أن تفعلها ، والمرأة تكون من « حافظات الغيب » ليس بارتجال من عندها أو باختيار ، بل بالمنهج الذى وضعه الله لحفظ الغيب ؟ . .

فما المنهج الذى وضعه الله لحفظ الغيب ؟ تحافظ على عرضها وعلى مال زوجها فى غيبته ، فتنظر المنافذ التى تأتى منها الفتنة وتمتنع عنها ، لا تخرج إلى الشوارع إلا لحاجة ماسة أو ضرورة كى لا ترى أحداً يفتنها أو يفتن بها ، لأن هذه هى مقدمات الحفظ ، ولا تذهب فى زحمة الحياة ، وبعد ذلك نقول لها: « حافظى على الغيب » بل عليها أن تنظر ما بيّنه الله فى ذلك . فإن اضطررت أن تخرجى فلتغضى البصر ؛ ولذلك قال سبحانه :

﴿ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ﴾

(من الآية ٣١ سورة النور)

---

(١) رواه الترمذى وابن ماجه والحاكم عن أبى هريرة .

فالمرأة إن لم تغض النظر يحدث التفات عاطفى ؛ لأن كل شعور فى الإنسان له ثلاث مراحل : مرحلة أن يدرك ، ومرحلة أن يجد فى نفسه ، ومرحلة أن ينزع ، أى يحول الأمر إلى سلوك ، ونضرب دائماً المثل بالوردة . وأنت تسير ترى وردة فى بستان وبمجرد رؤيتك لها فهذا إدراك ، وإذا أعجبتك الوردة وعشقتها وأحببتها فهذا اسمه وجدان . وإذا اتجهت لتقطفها فهذه عملية نزوعية ، فكم مرحلة ؟ ثلاث مراحل : إدراك ، فوجدان . فنزوع .

ومتى يتدخل الشرع ؟ الشرع يتدخل فى عملية النزوع دائماً . يقول لك : أنت نظرت الوردة ولم نعترض على ذلك ، أحببتها وأعجبتك فلم نقل لك شيئاً ، لكن ساعة جئت لتمدّ يدك لتأخذها قلنا لك : لا ، الوردة ليست لك .

إذن فأنت حرّ فى أن تدرك ، وحرّ فى أن تجد فى نفسك ، إنما ساعة تنزع نقول لك : لا ، هى ليست لك ، وإن أعجبتك فازرع لك وردة فى البيت ، أو استأذن صاحبها مثلاً .

إذن فالتشريع يتدخل فى منطقة النزوع ، إلا فى أمر المرأة فالتشريع يتدخل من أول الإدراك ؛ لأن الذى خلقنا علم أننا إن أدركنا جمالاً ، نظرنا له ، وستتولد عندنا مواجيد بالنسبة للأشياء التى نراها ونشتهيها ، وساعة يوجد إدراك واشتهاء ، لا يمكن أن ينفصل هذا عن النزوع ؛ لأنك ـ كرجل ـ مركب تركيباً كيميائيا بحيث إذ أدركت جمالاً ثم حدث لك وجدان واشتهاء ، فالاشتهاء لا يهدأ إلا بنزوع ، فيبيّن لك الشرع : أنا رحمتك من أول الأمر ، وتدخلت من أول المسألة . وكل شىء أتدخل فيه عند النزوع إلا المرأة فقد تدخلت فيها من أول الإدراك ؛ لذلك أمر الحق الرجل أن يغض البصر ، وكذلك أمر المرأة .

لماذا ؟ لأنك إن أدركت فستجد ، وإن وجدت فستحاول أن تنزع ونزوعك سيكون عربدة فى أعراض الناس ، وإن لم تنزع فسيبقى عندك كبت ؛ لذلك حسم الحق المسألة من أولها وقال :

﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ

﴿ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ۝ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ ﴾

(الآية ٣٠ وجزء من الآية ٣١ سورة النور)

فامنعوا المسألة من أول مراحلها لماذا ؟ لأننى عندما أرى وردة ، ثم قالوا لى : هى ليست لك فلا تقطفها ، فلا يحدث عندى ارتباك فى مادتى ، لكن عندما يرى الرجل امرأة جميلة وتدخل فى وجدانه فسيحدث عنده النزوع ؛ لأن له أجهزة مخصوصة تنفعل لهذا الجمال ، ولذلك يوضح لك الحق : أنا خالقك وسأتدخل فى المسألة من أول الأمر ، فقوله : « بما حفظ الله » أى بالمنهج الذى وضعه الله للحفظ : ألا أعرض نفسى إلى إدراك ، فينشأ عنه وجدان ، وبعد ذلك أفكر فى النزوع ، . فإن نزعت أفسدت ، وإن لم تنزع تعقدت ، فيأتى شرّ من ذلك ، هذا معنى « بما حفظ الله » ، يعنى انظروا إلى المنهج الذى وضعه الله لأن تحفظ المرأة غيبة زوجها ، وهى تحفظه ليس بمنهج من عندها . بل بالمنهج الذى وضعه خالقها وخالقه .

وها هو ذا الحق سبحانه وتعالى حينما يربّى فى عبده حاسة اليقظة قال : « واللاتى تخافون نشوزهن » فالنشوز لم يحدث بل مخافة أن يحدث ، فاليقظة تقتضى الترقب من أول الأمر ، لا تترك المسألة حتى يحدث النشوز ، و« النشوز » من « نشز » أى ارتفع فى المكان . ومنه « النشز » وهو المكان المرتفع ، ومادام الحق قد قال : « الرجال قوامون على النساء » فالمعنى هنا : مَن تريد أن تتعالى وتوضع فى مكانة عالية ؟ ؛ ولذلك فالنشاز حتى فى النغم هو : صوت خارج عن قواعد النغم فيقولون : هذه النغمة نشاز ، أى خرجت عن قاعدة النغمة التى سبقتها . وكذلك المرأة المفروض فيها أنها تكون متطامنة ، فإن شعرت أن فى بالها أن تتعالى فإياك أن تتركها إلى أن تصعد إلى الربوة وترتفع . بل عليك التصرف من أول ما تشعر ببوادر النشوز فتمنعه ، ومعنى قوله : « واللاتى تخافون » يعنى أن النشوز أمر متخوف منه ومتوقع ولم يحدث بعد .

وكيف يكون العلاج ؟ يقول الحق : « فعظوهن » أى ساعة تراها تنوى هذا فعظها ، والوعظ : النصح بالرقة والرفق ، قالوا فى النصح بالرقة : أن تنتهز فرصة

انسجام المرأة معك ، وتنصحها فى الظرف المناسب لكى يكون الوعظ والإرشاد مقبولاً فلا تأت لإنسان وتعظه إلا وقلبه متعلق بك .

ولنفترض أن ابناً طلب من والده طلباً ، ولم يحضره الأب ، ثم جاءت الأم لتشكو للأب سلوك الابن ، فيحاول الأب إحضار الطلب الذى تمناه الابن ، ويقول له :

ـ تعال هنا يا بنى ، إن الله قد وفقنى أن أحضر لك ما طلبت .

وفى لحظة فرح الابن بالحصول على ما تمنى ، يقول له الأب : لو تذكرت ما قالته لى أمك من سلوكك الردىء لما أحضرته لك .

ولو سب الأب ابنه فى هذه اللحظة فإن الابن يضحك .

لماذا ؟ لأن الأب أعطى الابن الدرس والعظة فى وقت ارتباط قلبه وعاطفته به . ولكن نحن نفعل غير ذلك . فالواحد يأتى للولد فى الوقت الذى يكون هناك نفور بينهما ، ويحاول أن يعظه ، لذلك لا تنفع الموعظة ، وإذا أردنا أن تنفع الموعظة يجب أن نغير من أنفسنا ، وأن ننتهز فرصة التصاق عواطف من نرغب فى وعظه فنأتى ونعطى العظة .

هكذا « فعظوهن » هذه معناها : برفق وبلطف ، ومن الرفق واللطف أن تختار وقت العظة ، وتعرف وقت العظة عندما يكون هناك انسجام ، فإن لم تنفع هذه العظة ورأيت الأمر داخلاً إلى ناحية الربوة ؛ والنشوز فانتبه . والمرأة عادةً تَدِل على الرجل بما تعرف فيه من إقباله عليها . وقد تصبر المرأة على الرجل أكثر من صبر الرجل عليها ؛ لأن تكوين الرجل له جهاز لا يهدأ إلا أن يفعل . لكن المرأة تستثار ببطء ، فعندما تنفعل أجهزة الرجل فهو لا يقدر أن يصبر ، لكن المرأة لا تنفعل ولا تستثار بسرعة ، فأنت ساعة ترى هذه الحكاية ، وهى تعرفك أنك رجل تحب نتائج العواطف والاسترسال ؛ فأعط لها درساً فى هذه الناحية ، اهجرها فى المضجع .

وانظر إلى الدقة ، لا تهجرها فى البيت ، لا تهجرها فى الحجرة ، بل تنام فى جانب وهى فى جانب آخر ، حتى لا تفضح ما بينكما من غضب ، اهجرها فى المضجع ؛ لأنك إن هجرتها وكل البيت علم أنك تنام فى حجرة مستقلة أو تركت البيت وهربت ، فأنت تثير فيها غريزة العناد ، لكن عندما تهجرها فى المضجع فذلك أمر يكون بينك وبينها فقط ، وسيأتيها ظرف عاطفى فتتغاضى ، وسيأتيك أنت أيضاً ظرف عاطفى فتتغاضى ، وقد يتمنى كل منكما أن يصالح الآخر .

إذن فقوله : « واهجروهن فى المضاجع » كأنك تقول لها : إن كنت سَتُدِلِّينَ بهذه فأنا أقدر على نفسى . ويتساءل بعضهم : وماذا يعنى بأن يهجرها فى المضاجع ؟. نقول : مادام المضجع واحداً فليعطها ظهره ويشرط ألا يفضح المسألة ، بل ينام على السرير وتُغلق الحجرة عليهما ولا يعرف أحد شيئاً ؛ لأن أى خلاف بين الرجل والمرأة إن ظل بينهما فهو ينتهى إلى أقرب وقت ، وساعة يخرج الرجل وعواطفه تلتهب قليلاً ، يرجع ويتلمسها ، وهى أيضاً تتلمسه . والذى يفسد البيوت أن عناصر من الخارج تتدخل ، وهذه العناصر تورث فى المرأة عناداً وفى الرجل عناداً ؛ لذلك لا يصح أن يفضح الرجل ما بينه وبينه المرأة عند الأم والأب والأخ ، ولنجعل الخلاف دائماً محصوراً بين الرجل والمرأة فقط . فهناك أمر بينهما سيلجئهما إلى أن يتسامحا معاً .

« فعظوهن واهجروهن فى المضاجع واضربوهن » وقالوا : إن الضرب بشرط ألا يسيل دماً ولا يكسر عظماً . . أى يكون ضرباً خفيفاً يدل على عدم الرضا ؛ ولذلك فبعض العلماء قالوا : يضربها بالسواك .

وعلمنا ربنا هذا الأمر فى قصة سيدنا أيوب عندما حلف أن يضرب امرأته مائة جلدة ، قال له ربنا :

﴿ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ ﴾

(من الآية ٤٤ سورة ص)

والضغث هو الحزمة من الحشيش يكون فيها مائة عود ، ويضربها ضربة واحدة فكأنه ضربها مائة ضربة وانتهت . فالمرأة عندما تجد الضرب مشوباً بحنان الضارب

فهى تطيع من نفسها ، وعلى كل حال فإياكم أن تفهموا أن الذى خلقنا يشرع حكماً تأباه العواطف ، إنما يأباه كبرياء العواطف ، فالذى شرع وقال هذا لابد أن يكون هكذا .

« واللاتى تخافون نشوزهن فعظوهن واهجروهن فى المضاجع واضربوهن » أى ضرباً غير مبرح ، ومعنى : غير مبرح أى ألا يسيل دماً أو يكسر عظماً ويتابع الحق : « فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا » .

فالمسألة ليست استذلالاً . بل إصلاحا وتقويما ، وأنت لك الظاهر من أمرها ، إياك أن تقول : إنها تطيعنى لكن قلبها ليس معى ؛ وتدخل فى دوامة الغيب ، نقول لك : ليس لك شأن لأن المحكوم عليه فى كل التصرفات هو ظاهرالأحداث . أما باطن الأحداث فليس لك به شأن مادام الحق قال : « أطعنكم » ؛ فظاهر الحدث إذن أن المسألة انتهت ولا نشوز تخافه ، وأنت إن بغيت عليها سبيلاً بعد أن أطاعتك ، كنت قوياً عليها فيجب أن تتنبه إلى أن الذى أحلها لك بكلمة هو أقوى عليك منك عليها وهذا تهديد من الله .

ومعنى التهديد من الله لنا أنه أوضح : هذه صنعتى ، وأنا الذى جعلتك تأخذها بكلمتى « زوجنى .. زوجتك » .. ومادمت قد ملكتها بكلمة منى فلا تتعال عليها ؛ لأننى كما حميت حقك أحمى حقها . فلا أحد منكما أولى بى من الآخر ، لأنكما صنعتى وأنا أريد أن تستقر الأمور ، وبعد هذا الخطاب للأزواج يأتى خطاب جديد فى قول الحق من بعد ذلك :

﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ﴿٣٥﴾ ﴾

وقوله : « وإن خفتم شقاق بينهما » يعنى أن الشقاق لم يقع بعد ، إنما تخافون أن يقع الشقاق ، وما هو « الشقاق » ؟ الشقاق مادته من الشق ، وشق : أى أبعد شيئاً عن شيء ، شققت اللوح : أى أبعدت نصفيه عن بعضها ، إذن فكلمة « شقاق بينهما » تدل على أنهما التحما بالزواج وصارا شيئاً واحداً ، فأى شيء يبعد بين الاثنين يكون « شقاقاً » إذ بالزواج والمعاشرة يكون الرجل قد التحم بزوجه هذا ما قاله الله :

﴿ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا ﴾

(من الآية ٢١ سورة النساء)

ويتأكد هذا المعنى فى آية أخرى :

﴿ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ﴾

(من الآية ١٨٧ سورة البقرة)

وهذا يعنى أن المرأة مظروفة فى الرجل والرجل مظروف فيها . فالرجل ساتر عليها وهى ساترة عليه ، فإذا تعدّاهما الأمر ، يقول الحق : « وإن خفتم شقاق بينهما » مَن الذين يخافون ؟ . . أهو ولىّ الأمر أم القرابة القريبة من أولياء أمورها وأموره ؟ أى الناس الذين يهمهم هذه المسألة .

« وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكماً من أهله وحكماً من أهلها » إنهم البيئة والمجال العائلى ، إذن فلا تدع المسائل إلى أن يحدث الشقاق ، كأن الإسلام والقرآن ينبهنا إلى أن كل أناس فى محيط الأسرة يجب أن يكونوا يقظين إلى الحالات النفسية التى تعترض هذه الأسرة ، سواء أكان أباً أم أخاً أم قريباً عليه أن يكون متنبهاً لأحوال الأسرة ولا يترك الأمور حتى يحدث الشقاق بدليل أنه قال : « وإن خفتم شقاق بينهما » . . فالشقاق لم يحدث ، ويجب ألا تترك المسألة إلى أن يحدث الشقاق ، « وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا » وهذا القول هو لولىّ الأمر العام أيضا إذا كانت عيونه يقظة إلى أنه يشرف على علاقات كل البيوت ، ولكن هذا أمر غير وارد فى ضوء مسئوليات ولى الأمر فى العصر الحديث . إذن فلا بد أن الذى سيتيسر له تطبيق هذا الأمر هم البارزون من الأهل هنا وهناك ، وعلى كل من لهم وجاهة فى الأسرة أن يلاحظوا الخط البيانى للأسرة ، يقولون : نرى كذا وكذا .

ونأخذ حَكَماً من هنا وحكماً من هناك وننظر المسألة التى ستؤدى إلى عاصفة قبل أن

تحدث العاصفة ؛ فالمصلحة انتقلت من الزوجين إلى واحد من أهل الزوج وواحد من أهل الزوجة ، فهؤلاء ليس بينهما مسألة ظاهرة بأدلتها ، ولم تتبلور المشكلة بعد ، وليس في صدر أي منهما حُكْمٌ مسبق ، ويجوز أن يكون بين الزوجين أشياء ، إنما الحكَم من أهل الزوج والحكَم من أهل الزوجة ليس في صدر أي منهما شيء ، ومادام الاثنان ستوكل إليهما مهمة الحكم . فلا بد أن يتفقا على ما يحدث بحيث إذا رأى الاثنان أنه لا صلح إلا بأن تطلق ، فهما يحكمان بالطلاق ، والناس قد تفهم أن الحكم هم أناس يُصْلِحُون بين الزوجين فإن لم يعجبهم الحكم بقى الزوجان على الشقاق ، لا . فنحن نختار حكماً من هنا وحكماً من هناك .

إن ما يقوله الحكمان لابد أن ننفذه ، فقد حصرت هذه المسألة في الحكمين فقال : « إن يريدا إصلاحاً يوفق الله بينهما » . . فكأن المهمة الأساسية هي الإصلاح وعلى الحكمين أن يدخلا بنية الإصلاح ، فإن لم يوفق الله بينهما فكأن الحكمين قد دخلا بألا يصلحا .

إن على كل حكم أن يخاف على نفسه ويحاول أن يخلص في سبيل الوصول إلى الإصلاح ؛ لأنه إن لم يخلص فستنتقل المسألة إلى فضيحة له.. فالذى خلق الجميع : الزوج والزوجة والحكم من أهل الزوج والحكم من أهل الزوجة قال : « إن يريدا إصلاحاً يوفق الله بينهما » فليذهب الاثنان تحت هذه القضية ، ويصرّا بإخلاص على التوفيق بينهما ؛ لأن الله حين يطلق قضية كونية ، فكل واحد يسوس نفسه وحركته في دائرة هذه القضية . وحين يطلق الله قضية عامة فهو العليم الخبير ، ومثال ذلك قوله :

﴿ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾ ﴾

(سورة الصافات)

إنه سبحانه قال ذلك ، فليحرص كل جندى على أن يكون جندياً لله ؛ لأنه إن انهزم فسنقول له : أنت لم تكن جندياً لله ، فيخاف من هذه . إذن فوضع القضية الكونية في إطار عقدى كي يجند الإنسان كل ملكاته في إنجاح المهمة ، وعندما يقول الله : « إن يريدا إصلاحاً يوفق الله بينهما » ، فإياك أن تغتر بحزم الحكمين ، وبذكاء الحكمين ، فهذه أسباب . ونؤكد دائماً : إياك أن تغتر بالأسباب ؛ لأن كل شيء من

المسبب الأعلى ، ولنلحظ دقة القول الحكيم : « يوفق الله بينهما » . فسبحانه لم يقل : إن يريدا إصلاحاً يوفقا بينهما . بل احتفظ سبحانه لنفسه بفضل التوفيق بين الزوجين .

ويذيل سبحانه الآية : « إن الله كان عليما خبيرا » أي بأحوال الزوج ، وبأحوال الزوجة ، وبأحوال الحكم من أهله ، وبأحوال الحكم من أهلها ، فهم محوطون بعلمه . وعلى كل واحد أن يحرص على تصرفه ؛ لأنه مسئول عن كل حركة من الحركات التي تكتنف هذه القضية ؛ فربنا عليم وخبير .

وما الفرق بين « عليم » و« خبير » ؟ . . فالعلم قد تأخذه من علم غيرك إنما الخبرة فهي لذاتك .

وبعد أن تكلم الحق على ما سبق من الأحكام في الزواج وفي المحرمات ، وأخذنا من مقابلها المحللات ، وتكلم عمن لا يستطيع طولاً وتكلم عن المال . . وحذرنا أن نأكله بالباطل ، وتكلم عن الحال بين الرجل والمرأة ، وبعد ذلك لفتنا الحق ووجهنا ونبهنا إلى المنهج الأعلى وهو قوله سبحانه :

﴿ وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾ ﴾

وعندما يقول لنا الحق : « واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا » أى : إياكم أن تدخلوا فى قضية من هذه القضايا على غير طاعة الله فى منهجه . . والعبادة هى : طاعة العابد للمعبود ، فلا تأخذها على أنها العبادات التى تفعلها فقط من : الصلاة والصوم والزكاة والحج ؛ لأن هذه أركان الإسلام ، ومادامت هذه هى الأركان والأسس التى بنى عليها الإسلام ، إذن فالإسلام لا يتكون من الأركان فقط بل الأركان هى الأسس التى بنى عليها الإسلام ، والأسس التى بنى عليها البيت ليست هى كل البيت ؛ لذلك فالإسلام بنيان متعدد . فالذين يحاولون أن يأخذوا من المصطلح التصنيفى ، أو المصطلح الفنى فى العلوم ويقولون : إن العبادات هى : الصلاة وما يتعلق بها . . والزكاة والصوم والحج ؛ لأنها تسمى فى كتب الفقه « العبادات » فلقد قلنا : إن هذا هو الاسم الاصطلاحى ، لكن كل أمر من الله هو عبادة .

ولذلك فبعض الناس يقول : نعبد الله ولا نعمل . نقول لهم : العبادة هى طاعة عابد لأمر معبود ، ولا تفهموا العبارة على أساس أنها الشعائر فقط ، فالشعائر هى إعلان استدامة الولاء لله . وتعطى شحنة لنستقبل أحداث الحياة ، ولكن الشعائر وحدها ليست كل العبادة ، فالمعاملات عبادة ، والمفهوم الحقيقى للعبادة أنها تشمل عمارة الأرض ، فالحق سبحانه وتعالى قال :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَ ﴾

(من الآية ٩ سورة الجمعة)

كأنه أخرجهم من البيع إلى الصلاة ، ولم يخرجهم من فراغ بل أخرجهم من حركة البيع ، وجاء بـ« البيع » لأنه العملية التى يأتى ربحها مباشرة ؛ لأنك عندما تزرع زرعاً ستنتظر مدة تطول أو تقصر لتخرج الثمار ، لكن البيع تأتى ثمرته مباشرة ، تبيع فتأخذ الربح فى الحال . والبيع ـ كما نعلم ـ ينظم كل حركات الحياة ، لأن معنى البيع : أنه وسيط بين منتج ومستهلك ، فعندما تبيع سلعة ، هذه السلعة جاءت من منتج ، والمنتج يبحث عن وسيط يبيعها لمستهلك ، وهذا المستهلك تجده منتجاً أيضاً ، والمنتج تجده أيضاً مستهلكاً . فالإنتاج والاستهلاك تبادل وحركة الحياة كلها فى البيع وفى الشراء ، ومادام هناك بيع ففيه شراء . فهذا استمرار لحركة الحياة . والبائع دائماً يجب أن يبيع ، لكن المشترى قد لا يحب أن يشترى ؛ لأن المشترى

سيدفع مالاً والبائع يكسب مالاً ، فيوضح الله : أتركوا هذه العملية التى يأتى ربحها مباشرة ، ولبّوا النداء لصلاة الجمعة . لكن ماذا بعد الصلاة ؟ يقول الحق :

﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾ ﴾

(سورة الجمعة)

إذن فهذا أمر أيضاً . فإن أطعنا الأمر الأول : « فاسعوا إلى ذكر الله » فالأمر فى « فانتشروا فى الأرض » يستوجب الطاعة كذلك . إذن فكل هذه عبادة ، وتكون حركة الحياة كلها عبادة : إن كانتْ صلاة فهى عبادة ، والصوم عبادة ، وبعد ذلك.. ألا تحتاج الصلاة لقوام حياة ؟ لا بد أن تتوافر لك مقومات حياة حتى تصلى . وما هى مقومات حياتك ؟ إنها طعام وشراب ومسكن ومَلْبس ، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب . إذن فجماع حركة الحياة كلها سلسلة عبادة ، ولذلك فالحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾

(من الآية ٦١ سورة هود)

إذن فكل عمل يؤدى إلى عمارة الكون واستنباط أسرار الله فى الوجود يعتبر عبادة لله ؛ لأنك تخرج من كنوز الله التى أودعها فى الأرض ما يلفت الناس إلى الحقيقة الكونية التى جاء بها الإيمان .

وإياك أن تظن أن العبادة هى فقط العبادة التصنيفية التى فى الفقه « قسم العبادات » و« قسم المعاملات » .. لا ، فكله عبادة ، لكن الحركات الحياتية الأخرى لا تظهر فيها العبادة مباشرة ؛ لأنك تعمل لنفعك ، أما فى الصلاة فأنت تقتطع من وقتك ، فسميناها العبادة الصحيحة ؛ لأن العمليات الأخرى يعمل مثلها من لم يؤمن بإله ، فهو أيضا يخرج للحياة ويزرع ويصنع .

ولماذا سموها العبادات ؟ لأن مثلها لا يأتى من غير متدين . إنما الأعمال الأخرى من عمارة الكون والمصلحة الدنيوية فغير المتدين يفعلها ولكن كل أمر لله نطيعه فيه اسمه عبادة . هذا مفهوم العبادة الذى يجب أن يتأكد لنا أن نخلص العمل بالعقول التى

خلقها الله لنا بالطاقات المخلوقة لنا ، فى المادة المخلوقة وهى الأرض وعناصرها لنرقى بالوجود إلى مستوى يسعدنا ويرضى الله عنه .

« واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا » . بعدما قال كل هذا الكلام السابق ، لفتنا ربنا إلى قضية يجب أن نلحظها دائما فى كل تصرفاتنا هى أن نأتمر بأمر الله فى منهجه ، وألا نشرك به شيئاً ؛ لأن الشرك يضر قضية الإنسان فى الوجود ، فإن كنت فى عمل إياك أن تجعل الأسباب فى ذهنك أمام المسبب الأعلى . . بل اقصد فى كل عمل وجه الله .

ويضرب الحق المثل لراحة الموحد ولتعب المشرك فقال :

﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾

(سورة الزمر)

فهذا عبد مملوك لجماعة ، والجماعة مختلفة ومتشاكسة ، وهو لا يعرف كيف يوفق بين أوامر كل منهم التى تتضارب ، فإن أرضى هذا ، أغضب ذاك . إذن فهو عبد مبدد الطاقة موزع الجهد ، مقسم الالتفاتات ، ولكن العبد المملوك لواحد ، لا يتلقى أمراً إلا من سيد واحد ونهياً من السيد نفسه . والحق يشرع القضية لعباده بصيغة الاستفهام ، وهو العليم بكل شيء ليجعل المؤمن به يشاركه فى الجواب حتى إذا ما قال الحق : « هل يستويان » ؟ هنا يعرضها الإنسان على عقله ويريد أن يجيب ، فماذا يقول ؟ سيجيب بطبيعة الفطرة وطبيعة منطق الحق قائلاً : لا يارب لا يستويان .

إذن فأنت أيها العبد المؤمن قد قلتها ، ولم يفرضها الله عليك . وقد طرحها الحق سبحانه سؤالاً منه إليك ؛ حتى يكون جوابك الذى لن تجد جواباً سواه . فإذا ما كنت كذلك أيها العبد المؤمن قد ارتحت فى الوجود وتوافرت لك طاقتك لأمر واحد ونهى واحد ، هنا تصبح سيداً فى الكون ، فلا تجد فى الكون من يأخذ منك عبوديتك للمكون . وتلك هى راحتنا فى تنفيذ قول الله : « واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا »

لأن الإشراك بالله ـ والعياذ بالله ـ يرهق صاحبه . وياليت المشركين حين يشركون يأخذون عون الله ، ولا يأخذون عون الشركاء . لكن الله يتخلى عن العبد المشرك ، لأنه سبحانه يقول :

(أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملا أشرك فيه معى غيرى تركته وشركه)[1] .

الحق إذن يتخلى عن العبد المشرك . وليت العبد المشرك يأخذ حظه من الله كشريك . . وإنما ينعدم عنه حظ الله ؛ لأن الله غنى أن يشرك معه أحدا آخر . وهكذا يكون المشرك بلا رصيد إيمانى ، ويحيا فى كد وتعب . ويردف الحق سبحانه وتعالى عبادته بالإحسان إلى الوالدين فيأتى قوله ـ جل شأنه ـ: « وبالوالدين إحسانا » والوالدان هما الأب والأم ، لأنهما السبب المباشر فى وجودك أيها المؤمن . ومادامت عبادتك لله هى فرع وجودك ، إذن فإيجادك من أب وأم كسببين يجب أن يلفتك إلى السبب الأول ؛ إن ذلك يلفتك إلى من أوجد السلسلة إلى أن تصل إلى الإنسان الأول وهو آدم عليه السلام .

« وبالوالدين إحسانا » . . انظر إلى المنزلة التى أعطاها الله للوالدين ، وهما الأب والأم . والخطاب لك أيها المسلم لتعبد الله ، والتكليف لك وأنت فرع الوجود ؛ لأن الخطاب لمكلف ، والتكليف فرع الوجود ، والوالدان هما السبب المباشر لوجودك ، فإذا صعّدت السبب فالوالدان من أين جاءا ؟ . . من والدين ، وهكذا حتى تصلْ لله ، إذن فانتهت المسألة إلى الواحد ؛ لأن التكليف من المُكلِّف إلى المُكَلَّف فرع الوجود . والوجود له سبب ظاهرى هما « الوالدان » ، وعندما تسلسلها تصل لله إنه ـ سبحانه ـ أمر : اعبدنى ولا تشرك بى شيئا ، وبعد ذلك . . « وبالوالدين إحسانا » . . كلمة « الإحسان » تدل على المبالغة فى العطاء الزائد . . الذى نسميه مقام الإحسان

« وبالوالدين إحسانا » . . الحق سبحانه وتعالى حينما قرن الوالدين بعبادته؛لأنه إله واحد ولا نشرك به شيئا ، لم ينكر أو يتعرض لإيمانهما أو كفرهما ، لأن هناك آية أخرى

(١) رواه مسلم وابن ماجه عن أبى هريرة .

يقول فيها :

﴿ وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ﴾

(من الآية ١٥ سورة لقمان)

صحيح لا تطعهما ولكن احترمهما ؛ لأنهما السبب المباشر في الوجود وإن كان هذا السبب مخالفاً لمن أنشأه وأوجده وهو الله - جلت قدرته - ، « وصاحبهما في الدنيا معروفا » والمعروف يصنعه الإنسان فيمن يحبه وفيمن لا يحبه ، إياك أن يكون قلبك متعلقاً بهما إن كانا مشركين ، لكن صاحبهما في الدنيا معروفا ؛ ولذلك قال : « وصاحبهما في الدنيا » أي انظر مصلحتهما في أمور الدنيا معروفاً منك . والمعروف تصنعه فيمن تحب وفيمن لا تحب .

والحق يقول : « وبالوالدين إحسانا » . . ويكررها في آيات متعددة . . فقد سبق في سورة البقرة أن قال لنا :

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾

(من الآية ٨٣ سورة البقرة)

وبعد ذلك تأتي هذه الآية التي نحن بصددها . . « واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحسانا » .

وبعد ذلك يأتي أيضاً قوله سبحانه :

﴿ قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ﴾

(من الآية ١٥١ سورة الأنعام)

وبعد ذلك يأتي الحق سبحانه وتعالى فيقول :

﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ﴾

(من الآية ١٥ سورة الأحقاف)

ويأتي أيضاً في سورة العنكبوت فيقول :
﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ﴾

(من الآية ٨ سورة العنكبوت)

لكن إن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعمها ، فإن كان الوالدان مشركين فلا بد أن نعطف عليهما معروفا . . والمعروف كما أوضحنا يكون لمن تحب ومن لا تحب ، ولكن الممنوع هو : الودادة القلبية ؛ ولذلك قال :
﴿ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾
(من الآية ٢٢ سورة المجادلة)

ولا يوجد تناقض أو شبه تناقض بين الآية التي نحن بصددها وبين آية سورة المجادلة . وهناك آيات تكلم فيها الحق وقرن عبادته بالإحسان إلى الوالدين ، وهناك آيتان جاء الأمر فيهما بالتوصية بالوالدين استقلالا .

وذلك في قوله تعالى :
﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا ﴾

(من الآية ١٥ سورة الأحقاف)

وفي قوله سبحانه :
﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ﴾

(الآية ٨ سورة العنكبوت)

ففيه « إحسان » ، وفيه « حسن » ، « الإحسان » : هو أن تفعل فوق ما كلفك الله مستشعراً أنه يراك . فإن لم تكن تراه فإنه يراك ، و« الإحسان » من « أحسن » ، فيكون معناها أنه ارتضى التكليف وزاد على ما كلفه . وعندما يزيد الإنسان على ما كلفه الله أن يصلى الخمس المطلوبة ثم يجعلها عشرة ، ويصوم شهر رمضان ، ثم يصوم يومى الاثنين والخميس أو كذا من الشهور ، ويزكى حسب ما قرر الشرع باثنين ونصف في المائة وقد يزيد الزكاة إلى عشرة في المائة ، ويحج ثم يزيد الحج مرتين . إذن فالمسألة أن تزيد على ما افترض الله ، فيكون قد أدخلك الله في مقام الإحسان ؛ لأنك حين جربت أداء الفرائض ذقت حلاوتها . وعلمت مما أفاضه الله عليك من معين التقوى ومن رصيد قوله :

﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ ﴾

(من الآية ٢٨٢ سورة البقرة)

علمت أن الله يستحق منك أكثر مما كلفك به ؛ ولذلك فبعض الصالحين فى أحد سبحاته قال : « اللهم إنى أخشى ألا تثيبنى على الطاعة لأننى أصبحت أشتهيها » . . أى صارت شهوة نفس ، فهو خائف أن يفقد حلاوة التكليف والمشقة فيقول : يارب إننى أصبحت أحبها ، ومفروض منا أننا نمنع شهوات أنفسنا لكنها أصبحت شهوة فماذا أفعل ؟

إذن فهذا الرجل قد دخل فى مقام الإحسان واطمأنت نفسه ورضيت وأصبح هواه تبعا لما أمر به الله ورضيه .

ولذلك يجب أن نلحظ أن الحق سبحانه وتعالى حينما تكلم عن المتقين قال :

﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٥) آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ (١٦) ﴾

(سورة الذاريات)

لماذا هم محسنون يارب ؟ . .

يقول الحق :

﴿ كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ (١٧) ﴾

(سورة الذاريات)

وهل كلفنى الله . ألا أهجع إلا قليلاً من الليل ؟ إن الإنسان يصلى العشاء من أول الليل وينام حتى الفجر ، هذا هو التكليف ، لكن أن تحلو للمؤمن العبادة ، ويزداد الإيمان فى القلب والجوارح ، ويأنس العبد بالقرب من الله ، فالحق لا يَرُدُّ مثل هذا العبد بل إنّه يستقبله ويدخله فى مقام الإحسان .

﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ (١٦) كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ (١٧)

﴿ وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ ﴾

(جزء من الآية ١٦ ، والآيتان ١٧ ، ١٨ سورة الذاريات)

وربنا لم يكلفهم بذلك ، إنما كلفهم فقط بخمسة فروض . ونعرف قصة الأعرابى الذى قال للرسول صلى الله عليه وسلم : هل علىّ غيرها ؟ قال له : لا ، إلا أن تَطَوَّعَ ، وذكر له رسول الله صلى الله عليه وسلم الزكاة ، فقال : هل علىّ غيرها ؟ قال : لا ، إلا أن تطَوّع ، قال : فأدبر الرجل وهو يقول : والله لا أزيد على هذا ولا أنقص منه . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (أفلح إن صدق)[1] .

وبذلك دخل هذا الأعرابى فى نطاق المفلحين . إذن فالذى يزيد على هذا يدخله الله فى نطاق المحسنين :

﴿ كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾ ﴾

(سورة الذاريات)

ولنلحظ دقة الأداء ، إن الحق لم يذكر أن للمحرومين فى أموال المحسنين حقاً معلوماً . لماذا ؟ ؛ لأن الحق سبحانه ـ ترك للمحسن الحرية فى أن يزيد على نسبة الزكاة التى يمنحها للسائل والمحروم ، وحينما يتكلم سبحانه عن مطلوب الإيمان يقول :

﴿ وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾ ﴾

(سورة المعارج)

إذن فالذى يزيد على ذلك ينتقل من مقام الإيمان ليدخل فى مقام الإحسان . كأنه يقول لك فى الآية التى نحن بصددها : إياك أن تعمل مع والديك القدر المفروض فقط ، بل ادخل فى برّهما والإنعام عليهما والتلطف بهما والرحمة لهما وذلّة الانكسار فوق ما يطلب منك ، ادخل فى مقام الإحسان ، ثم يأتى فى آية أخرى ليرشدنا بعد أن أدخلنا فى مقام الإحسان ، إنه يصف ذلك الإحسان بشىء آخر وهو « الحسن » :

(١) رواه مسلم فى كتاب الإيمان .

﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ﴾

(من الآية ٨ سورة العنكبوت)

وما هو المقابل «للحسن»؟ إنه «القبح»، إذن فالحق أدخلنا فى مقام الجمال مرة، وفى مقام الإحسان مرة أخرى، وهنا أكثر من ملحظ يجب ألا يغيب عن بال المسلم، أولاً: نجد أن المفروض فى الشائع الغالب أنّ الوالدين يربيان أبناءهما، ومن النادر أن يصبح الولد يتيماً ويربيه غير والديه، فقال: الحظ سبب التربية بعد الوجود، فسبب الوجود: يوجب عليك أن تعطيهما حقوقهما وفوق حقوقهما وتدخل فى مقام الإحسان، ولكنه جاء فى آية وعلل ذلك فقال:

﴿ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴾

(من الآية ٢٤ سورة الإسراء)

لقد جاء الحق بالتربية حيثية فى الدعاء لهما وفى البر التوصية بهما، لكن لو أن إنساناً أخذ فيك منزلة التربية ولم يأخذ فيك سببية الإيجاد، أله حق عليك أن يكون كوالديك؟

إن الحق يقول: «كما ربيانى»، فإذا كان والدى لهما هذا الحق، فكذلك من قام بتربيتى من غير الوالدين له هذا الحق أيضا! مادام جاء الحق بالوالدين فى علة الإحسان: «وقل رب ارحمهما كما ربيانى صغيرا».. فمرة نلحظ أنه لا يجىء بمسألة التربية كى نعلم أن الوالدين هما سبب الوجود، ومرة يلفتنا إلى أن من يتولى التربية يأخذ حظ الوالدين، وشىء آخر: وهو أن الحق سبحانه وتعالى حينما وصى بالوالدين إحسانا، جاء فى الحيثيات بما يتعلق بالأم ولم يأت بما يتعلق بالأب:

﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ﴾

(من الآية ١٥ سورة الأحقاف)

هنا جاء الحق بالحيثيات للأم وترك الأب بدون حيثية، وهذا كلام رب؛ لأن إحسان الوالدة لولدها وجد وقت أن صار جنيناً. فهى قد حافظت على نفسها وسارت بحساب وحرص فانشغلت به وهو مازال جنيناً. وحاولت أن توفر كل المطالب قبلما يتكون له عقل وفكر. بينما والده قد يكون بعيداً لا يعرفه إلا عندما يكبر ويصير غلاماً ليربيه لكفاح الحياة، أما فى فترة الحمل والمهد فكل الخدمات تؤديها الأم ولم يكن

للطفل عقل حتى يدرك هذا ، إنما بمجرد أن وجد العقل وجد أباه يعايشه ويعاشره ، وكلما احتاج إلى شيء قالت له الأم : أبوك يحققه لك ، وكل حاجة يحتاج إليها الطفل يسأل أباه أن يأتيه بها ، وينسى الطفل حكاية أمه وحملها له في بطنها وأنها أرضعته وسهرت عليه ؛ لأنه لم يكن عنده إدراك ساعة فعلت كل ذلك ، فمن الذى - إذن - يحتاج إلى الحيثية ؟ إنها الأم ، أما حيثية إكرام الأب فموجودة للإنسان منذ بدء وعيه لأنه رأى كل حاجته معه ؛ لذلك قال الحق :

﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا ﴾

(من الآية ١٥ سورة الأحقاف)

والطفل لا يعرف حكاية الحمل هذه ، وعندما يتنبه يجد أن والده هو الذى يأتى بكل حاجة ، ومادام أبوه هو الذى فى الصورة ، فتكون الحيثية عنه موجودة ، والأم حيثيتها مغفولة ومستورة ، فكان لابد من أن يذكرنا الله بالحيثية المتروكة عند الإنسان مكتفياً بالحيثية للأب الموجودة والواضحة عند الابن ، ولذلك تجد النبى صلى الله عليه وسلم حينما يوصىّ قال : أمك ثم أمك ثم أمك ، وبعد ذلك قال : ثم أبوك . كما جاء في الحديث : عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : « جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله من أحق الناس بحسن صحابتى ؟قال : أمك.قال : ثم من ؟ قال : أمك قال ثم من ؟ قال :أمك.قال:ثم من ؟ قال : أبوك »[1] .

ولو حسبتها تجدها واضحة ، وأيضا فالأبوة رجولة ، والرجولة كفاح وسعى . والأمومة حنان وستر ، فهى تحتاج ألا تخرج لسؤال الناس لقضاء مصالحها ، أبوك إن خرج ليعمل فعمله شرف له . إنما خروج الأم للسعى للرزق فأمر صعب على النفس ، فالحق سبحانه وتعالى يقول : « وبالوالدين إحسانا » . . أو « بوالديه حسنا » إنها . . مقرونة فى ثلاث آيات بعبادة الله وعدم الإشراك به ، ثم أفردهما بالإحسان فى آيتين ، ويلاحظ هنا أن الحق سبحانه وتعالى حينما تكلم قال :

---

(١) رواه البخارى ومسلم .

﴿ وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ﴾

(من الآية ١٥ سورة لقمان)

لكن هذا لا يمنع أن تعطيهما المعروف وما يحتاجان إليه ، ونلحظ أن الحق لم يأت لهما بطلب الرحمة وهما على الشرك والكفر كما طلبها لهما فى قوله :

﴿ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴾

(من الآية ٢٤ سورة الإسراء)

لأنهما وإن ربيا جسد الولد فلم يربيا قلبه وإيمانه ، فلا يستحقان أن يقول : ارحمهما ؛ لأن الحق أراد أن يسع الولد والديه فى الدنيا وإن كانا على الكفر .

والحق سبحانه وتعالى حينما يريد أن يشيع الإحسان فى الكون كله ، يبتدىء بالأقرب فالقريب فالجار ، فقال : « وبالوالدين إحسانا وبذى القربى » . إذن ففيه دوائر . ولو أن كل واحد أحسن إلى أبويه . فلن نجد واحداً فى شيخوخته مهيناً أبداً ، لذلك يوسع سبحانه دوائر الهمّة الإيمانية فجاء بالوالدين ثم قال بعدها : « وبذى القربى » أى صاحب القربى ، وما القربى ؟ إن كل من له علاقة نَسَبيَّة بالإنسان يكون قريباً . هذه هى الدائرة الثانية ، ولو أن كل إنسان موسعاً عليه وقادرا أخذ دائرة الوالدين ثم أخذ دائرة القربى فستتداخل ألوان البر من أقرباء متعددين على القريب الواحد ، ومادامت الدوائر ستتداخل ، فالواحد القريب سيجد له كثيرين يقومون على شأنه فلا يكون أحد محتاجا .

وبعد ذلك يتكلم سبحانه عن اليتامى ، واليتيم - كما نعلم - هو : من فقد أباه ولم يبلغ مبلغ الرجال ، إنه يحتاج إلى حنان أولى . لكن بعد أن يبلغ مبلغ الرجال فهو لا يعتبر يتيماً ؛ فقد أصبح له ذاتية مستقلة ؛ ولذلك يتخلى عنه الوصف باليتم ، والذى تموت أمه لا نسميه « يتيماً » ، لكن اليتيم فى الحيوانات ليس من فقد أباه بل من فقد أمه ، وإن كانت طفولة الحيوانات تنتهى بسرعة ؛ لأن والدة الحيوان هى التى ترعاه فى طفولته القصيرة نسبياً . إذن فيتم الحيوان من جهة الأم ، والإنسان يتمه هو فقد الأب ؛ لأن الإنسان أطول الحيوانات طفولة لأنه مُربًّى لمهمة أسمى من الحيوانية ، وعرفنا من قبل أنك عندما تأتى لتزرع - مثلاً - فِجْلاً . . فبعد خمسة عشر يوماً تأكل منه ، لكنك حينما تزرع نخلة أو تزرع شجرة « مانجو » تمكث كذا سنة ،

حتى تثمر . . إذن فطول مدة الطفولة وعدم النسل للمثل يتوقف على المهمة الموكولة للشيء ، فإن كانت مهمته كبيرة ، تكن مدة طفولته أطول .

والله سبحانه وتعالى يريد أن يوسع دائرة الإحسان . فإياك أن تقتصر على الوالدين فقط أو أصحاب القربى فقط . خذ في الدائرة أيضاً « اليتيم » ، لأن اليتيم فقد أباه ، ثم يرى كثيراً من زملائه وأقربائه لهم آباء ، ولو لم يوصّ الحق سبحانه وتعالى بهذا اليتيم لنشأ هذا الولد وفي قلبه جذوة من الحقد على المجتمع ، وقد يتمرد على الله ، ويتساءل : لماذا لا يكون لي أب وكل واحد من أقراني له أب يأتيه بحاجته ، لكن حين يرى أنه فقد أباً واحداً ثم وجد في الجو الإيماني آباء متعددين فهو لا يسخط على أن الله أمات أباه .

إن الذين يخافون أن يموتوا ويتركوا من بعدهم ذرية ضعافا ، عليهم بالإحسان إلى اليتيم . فلو رأى الواحد منا يتيماً يُكَرم في بيئة أبوة إيمانية لما شغل نفسه ولما خاف أن يموت ويترك ولداً صغيراً ، بل يقول الإنسان لنفسه : إن المجتمع فيه خير كثيرٌ ، وبذلك يستقبل الإنسان قدر الله بنفس راضية ، ولا يؤرق نفسه ، وهذه مسألة تشغل الناس فنقول لكل إنسان قادر : إذا كنت في بيئة إيمانية . واليتيم يجد رعاية من آباء إيمانيين متعددين فسينشأ اليتيم وليس فيه حقد ؛ ولذلك يقول الحق :

﴿ وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُواْ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَـٰفًا خَافُواْ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٩﴾ ﴾

(سورة النساء)

لأنك إن رأيت المجتمع الإيماني قد رعى أيتام غيرك فستكون على ثقة من أنه يرعى أيتامك ، فإن جاء الموت أو لم يأت فلا تشغل نفسك به ، لكن إذا رأى الإنسان يتيماً مضيعاً ، فهو يعض على أسباب الحياة ويريد أن يأتي بالدنيا كلها لولده ، ونقول لمثل هذا الأب : اعمل لابنك بأن تضع ما تريد أن تدخره له في يد الله ؛ لأن الذي خلق آمن من المخلوق ؛ ولذلك قلنا من قبل : إن سيدنا معاوية وسيدنا عمرو بن العاص كانا يجلسان ـ في أخريات حياتهما ـ يتكلمان معاً ، فيقول عمرو بن العاص لمعاوية : يا أمير المؤمنين : ماذا بقي لك من متع الدنيا ؟ قال معاوية : أما الطعام فقد سئمت

أطيبه ، وأما اللباس فقد مللت ألينه ، وحظى الآن فى شربة ماء بارد فى يوم صائف تحت ظل شجرة .

وهذه كلمة تعطى الإنسان طموحات إيمانية فى الكون ، فبعدما صار معاوية خليفة وأميراً للمؤمنين والكل مقبل عليه قال : حظى فى شربة ماء بارد فى ظل شجرة فى يوم صائف ، وهذه توجد عند ناس كثيرين . كأن الطموح انتهى إلى ما يوجد عند كل أحد : شربة ماء بارد ، ثم قال معاوية لعمرو : وأنت يا عمرو . ماذا بقى لك من متع الدنيا ؟ قال عمرو بن العاص : بقى لى أرض خوارة ـ يعنى فيها حيوانات تخور مثل البقر ـ فيها عين خرارة . . أى تعطى ماءً وفيراً لتروى الأرض ، وتكون لى فى حياتى ولولدى بعد مماتى ، وكان هناك خادم يخدمها اسمه « وردان » . أراد أمير المؤمنين أن يلاطفه فقال له : وأنت يا وردان ، ماذا بقى لك من متاع الدنيا ؟ انظروا إلى جواب العبد كى تعرفوا أن الإيمان ليس فيه سيد ومسود ، فقال له : حظى يا أمير المؤمنين : « صنيعة معروف أضعه فى أعناق قوم كرام لا يؤدونه إلىّ فى حياتى » أى لا يرون هذا الجميل لى . حتى تبقى لعقبى فى عقبهم . إذن فحظه صنيعة معروف يضعه فى أعناق قوم كرام لا يؤدونه إليه فى حياته حتى تكون لعقبه أى لمن سيترك من أولاده .

كأنه يفهمنا أنه لا شيء يضيع ، فكما تمد يدك يمد غيرك يده لك ، والرسول صلى الله عليه وسلم يعطينا هذه المنزلة فيقول : أنا وكافل اليتيم فى الجنة هكذا « وأشار بإصبعيه متجاورين » ، أىّ منزلة هذه ، فبالله بعد ذلك ألا يبحث كل واحد منّا عن يتيم يكفله لكى يكون مع النبى صلى الله عليه وسلم فى الجنة . وهذه المنزلة كانت أمنية كل صحابى .

فقد جاء رجل من الأنصار إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو محزون فقال له النبى صلى الله عليه وسلم:« يا فلان مالى أراك محزونا؟» فقال: يا نبىّ الله شيء فكرت فيه فقال : (ما هو ؟) قال:نحن نغدو عليك ونروح ننظر إلى وجهك ونجالسك وغداً ترفع مع النبيين فلا نصل إليك ، فلم يرد عليه النبى صلى الله عليه وسلم ونزل عليه جبريل بهذه الآية :

﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَـٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّـٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُوْلَـٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ﴾

(سورة النساء)

فبعث النبى صلى الله عليه وسلم فبشّره .[1] .

فالحق يقول لهؤلاء : لا تحزنوا ، فمادمتم تحبون رسول الله صلى الله عليه وسلم وتفرحون فى الدنيا لأنكم معه فلا تخشوا مسألة وجودكم معه بالجنة فسوف أبعثكم معه فى الجنة ، فالمرء مع من أحب ، ولذلك أقول لكل مسلم : ابحث عن يتيم تكفله كى تأخذ المنزلة الإيمانية ، المنزلة العلية فى الآخرة .

فقد قال عليه الصلاة والسلام : « أنا وكافل اليتيم فى الجنة هكذا وأشار بالسبّابة والوسطى وفرّج بينهما »[2] .

فقل لى:إذا عاملنا اليتيم فى ضوء هذه التعاليم فماذا يحدث ؟ سينتشر التكافل فى المجتمع .

ويقول الحق بعد ذلك : « والمساكين » . . ونعرف أن المساكين . . كما قال الفقهاء عنهم وعن الفقراء : إن كلهم فى حاجة ، فهل المسكين هو من لا يملك حاجة ، أو الفقير هو الذى لا يملك حاجة أو يملك دون حاجته . كأن يكون إيراده مثلاً عشرة بينما حاجتهُ تحتاج إلى عشرين ؟ ،المهم أنه يكون محتاجاً . وكلمة « فقير » مأخوذة من فقار الظهر أى مصاب بما يقصم الوسط والظهر . وهو اسم معبر .

و« مسكين » أيضاً اسم معبر من المسكنة والسكن أى ليس له استعلاء فى شىء . . مغلوب ومقهور . . فاللفظ نفسه جاء،معبراً ، و« الجار » كلمة « جار » تعنى : عدل ، كقولنا : جار عن الطريق أى عدل عنه ، فكيف أسمى من فى جانبى « جاراً » ؟ لأن مَن فى جانبك حدد مكاناً له من دنيا واسعة ، فيكون قد ترك الكثير

(١) من تفسير القرآن العظيم للإمام ابن كثير .
(٢) رواه البخارى .

وجاء للقليل ، وأصبح جارك ، أى أنه عدل عن دنياواسعة وجاء جانبك ، فسموا الجار لمن جار ، أى عدل عن كل الأمكنة الواسعة وجاء إلى مكان بجانبك .

وهذا الجار يوصى به الله سبحانه وتعالى كما أوصى بالقريب ، وباليتيم وبالمسكين ، للجار حقوق كثيرة ؛ لذلك قال النبى صلى الله عليه وسلم كما جاء فى الحديث : « الجيران ثلاثة : فجار له حق واحد ، وهو أدنى الجيران حقا . وجار له حقان ، وجار له ثلاثة حقوق : فأما الذى له حق واحد فجار مشرك لا رحم له ، له حق الجوار ، وأما الذى له حقان فجار مسلم له حق الإسلام وحق الجوار ، وأما الذى له ثلاثة حقوق فجار مسلم ذو رحم له حق الإسلام وحق الجوار وحق الرحم »[1] .

ويقول صلى الله عليه وسلم فى حق الجار :

« مازال جبريل يوصينى بالجار حتى ظننت أنه سيورثه »[2] .

أى سيجعل له من الميراث ، وما هى حدود الجار ؟ . حدوده : الأقرب بابا إليك ، إلى أربعين ذراعاً ، وقالوا : إلى أربعين داراً ، هنا يقول الحق : « والجار ذى القربى » . فأعطاه حق القربى وحق الجوار ، وقال ؛ « والجار الجنب » . لأن فيه جاراً قريباً وجاراً بعيداً وقوله : « الجنب » أى البعيد ، « والصاحب بالجنب » « الصاحب » هو المرافق . و« بالجَنْب » أى بجانبه . قالوا : هو الزوجة أو رفيق السفر ، لأن الرفقاء فى السفر مع بعضهم دائماً ، أو التابع الذى يتبعك طمعاً فيما عندك من الرزق سواء كان الرزق مالاً أو علماً أو حرفة يريد أن يتعلمها منك ؛ فهو الملازم لك ، والخادم أيضاً يكون « بالجنب » وكل هذا يوسع الدائرة للإحسان ، ولو حسبت هذه الدوائر لوجدتها كلها متداخلة .

وها هو ذا النبى عليه الصلاة والسلام يقول لأبى ذر رضى الله عنه :

---

(١) رواه البزار وأبو الشيخ فى الثواب ، وأبو نعيم فى الحلية عن جابر ، وهو حديث ضعيف .

(٢) رواه أحمد والبخارى ومسلم وأبو داود والترمذى عن ابن عمر .

« يا أبا ذر إذا طبخت مرقة فأكثر ماءها وتعاهد جيرانك »[1]

والمهم أن تتواصل مع جارك ، أو الجار ذى القربى : أى الذى قربته المعرفة ، وكثير من الجيران يكون بينهم ودّ ، وهناك جار لا تعرف حتى اسمه ، فهذا هو « الجار الجنب » ، و« الصاحب بالجنب وابن السبيل » وابن السبيل، فقد تقول مثلاً : فلان بن فلان ، كأنك لا تعرف أباه ، أو تقول:فلان ابن البلد الفلانية أى لا تعرف عنه شيئاً سوى أنه منسوب لبلد معين ، وعندما تقول:ابن سبيل تعنى أنه غريب انقطعت به كل الأسباب حتى الأسباب التى يمكن أن تعرفه بها ، فساعة تراه تقول « ابن سبيل » أى ابن طريق ، ولا تجد مكانا ينسب إليه إلا الطريق ، لا يجد أبا ينسب إليه ، لا يجد أمّا ، لا يجد قبيلة ، لا تعرف عنه شيئا .

« وما ملكت إيمانكم ».وسبق أن تكلمنا عن ملك اليمين وقلنا : إن الإسلام إنما جاء لا ليشرع رقاً . . ولكن جاء لينهى رقاً ، ويسد منابعه التى كانت موجودة قبل الإسلام ، ولا يبقى إلا منبع واحد.هذا المنبع الواحد هو الحرب المشروعة ، ولماذا لم يطلقهم ؟. لأن الحرب المشروعة عرضة أن يأخذ الخصوم من أبنائى وأنا آخذ من أبنائهم ، فلا أطلق أبناءهم إن جاءوا فى يدى حتى يطلقوا أبنائى الذين فى أيديهم ، ويصير الأمر إلى المعاملة بالمثل ، التى انتهى إليها العالم الحديث وهى تبادل الأسرى .

وقد نهانا الإسلام فى ملك اليمين عن أن يقال : «عبدى» بل يقال : فتاى . ولا يقال: « أمتى » بل يقال:فتاتى ، حتى التسمية أراد الشرع أن يهذبها ، كى لا تنصرف العبودية إلا لله .

الحق سبحانه وتعالى جاء بالإسلام والرق كان موجوداً ، وله ينابيع متعددة فوق العشرين ، وليس له إلا مصرف واحد هو إرادة السيد ، فجاء الإسلام ليصفى الرق ، وأول تصفية لشىء هو أن تسد منابعه . وبدل أن يكون مجرد مصرف واحد ، وهى رغبة السيد ، جعل له الإسلام مصارف متعددة ، إذن فنكون قد حددنا المنابع فى نبع واحد ، وعددنا المصارف . . فالذنب بينك وبين الله تكفره بأن تعتق رقبة ،

---

(١) رواه مسلم .

أو أحدثت ظهاراً مثلا تُعتق رقبة ، وهذه رغبة من يريد أن يصفى الرق ، فإذا لم توجد عند أى مالك أسباب لتصفية الرق وظل الفتى أو الفتاة تحت يمينه ، فالإسلام يرشدك ويهديك : مادمت لم تؤثر أن تعتقه واستبقيته فأحسن معاملته ، أطعمه مما تطعم وألبسه مما تلبس ، ولا تكلفه ما لا يطيق ، فإن كلفته فيدك معه ، وهات لى واحداً يلبس من ملابس سيده ويأكل مثله وعندما يعمل عملاً فوق طاقته تجدُ يَد السيد بيده . . أليست هذه هى المعاملة الطيبة ! قال الله : « وما ملكت أيمانكم » .

وبعد ذلك يجيء الحق سبحانه وتعالى فى ختام الآية بما يدك كبرياء ذى الإحسان ، فإياك أن تكون النعمة أو البذل الذى ستبذله يعطيك فى نفسك غرور الاستعلاء ؛ لأن غرور الاستعلاء هذا يكون استعلاء كاذباً . وأنت إذا استعليت على غيرك بأعراض الحياة ، فهذه الأعراض تتغير ، ومعنى « أعراض » أنها تأتى وتزول . فالذى يريد أن يستعلى ويستكبر فعليه أن يستعلى ويستكبر بحاجة ذاتية فيه ؛ ولذلك لا يوجد كبرياء إلا لله ، إنما الأغيار من البشر. فنحن نرى من كان قوياً يصير إلى ضعف ، ومن كان غنياً يصير إلى فقر ، ومن كان عالماً يصبح كمن لا يعلم :

﴿ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ﴾

(من الآية ٥ سورة الحج)

فلا كبرياء إذن لمخلوق ، ومن يريد أن يستعلى ويتكبر على غيره فليتكبر ـ كما قلنا ـ بحاجة ذاتية فيه ، أى بشيء لا يسلب منه ، والخلق كلهم فى أغيار ، والوجود الإنسانى تطرأ عليه الأغيار ، إذن فاجعل الكبرياء لصاحبه ، وإياك أن تظن أنه عندما قلنا لك : اعمل كذا وأحسن لذى القربى واليتامى والمساكين ، إياك أن تحبط هذه الأعمال بأن تستعلى بها ؛ لأنها موهوبة لك من الله ، ومادامت موهوبة لك من الله فاستح ؛ لأن الذى يتكبر هو الذى لا يجد أمام عينه من هو أكبر منه .

هات واحداً يتكبر لأن عنده مليوناً من الجنيهات ثم دخل عليه واحد آخر عنده أكثر منه ماذا يفعل ؟ إنه يستحى ويتضاءل ، ولا يتكبر الإنسان إلا إذا وجد كل الموجودين أقل منه ، لكنه لو ظل ناظراً إلى الله لعلم أن الكبرياء لله وحده .

إذن فعندما يتكبر المتكبر ، إنما يفعل ذلك لأن الله ليس فى باله . لكن لو كان الحق المتكبر بذاته فى باله لاستحى ، فإذا كان فى بالك من يعطيك لاستحييت .

إذن فمعنى المتكبر أن ربنا غائب عن باله ؛ لذلك يقول الحق فى ختام الآية : « إن الله لا يحب من كان مختالاً فخوراً » وما « الاختيال »؟وما « الفخر » ؟

إن المادة كلها تدل على زهو الحركة ، ولذلك نسمى الحصان « خيلا »؛لأنها تتخايل فى حركتها ، وعندما يركبها أحد تتبختر به ؛ ولذلك نسمى الخيلاء من هذه . إذن « الاختيال » : حركة مرئية ، « والفخر » حركة مسموعة ، فالحق ينهى الإنسان عن أن يمشى بعنجهية ، كما نهاه عن أن يسير مائلا بجانبه ولا أن يعتبر نفسه مصدراً للنعمة حتى لا ينطبق عليه قوله سبحانه :

﴿ ثَانِيَ عِطْفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُۥ فِي ٱلدُّنْيَا خِزْيٌ وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ۝٩ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ۝١٠ ﴾

(سورة الحج)

أما الفخر فهو أن يتشدق الإنسان بالكلام فيحكى عما فعل وكأنه مصدر كل عطاء للبشر ، والخيلاء والفخر ممنوعان ، وعلى المسلم أن يمتنع عن الحركة المرئية وعن كلام الفخر ، ولماذا جاء الحق بهذا هنا ؟ إنه جاء به حتى لا يظن عبد أنه يحسن إلى غيره من ذاتيته ، إنه يحسن مما وهبه الله .

ولا يصح أن تستخدم من أحسنت إليهم وتتخذهم عبيداً ؛ لأنك تحسن عليهم . وعندما تنظر إلى سيادتك على هؤلاء لأنك تعطيهم ، فلماذا لا تنظر إلى سيادة من أعطاك ؟ إنك عندما تفعل ذلك وتنظر إلى سيادة خالقك فإنك قد التزمت الأدب معه وبعدت عن الاختيال والفخر بما قدمت لغيرك ، يقول الحق :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴾

(من الآية ٣٦ سورة النساء)

وبعدما قال الحق : « وبالوالدين إحسانا » قال : « وبذى القربى واليتامى » .

وتحدث عن البذل والأريحية والجود والسماح وبسط اليد ، أتى سبحانه بالحديث عن المقابل وهو :

﴿ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٣٧﴾ ﴾

وما معنى البخل ؟ إنه مشقة الإعطاء . فعندما يقطع حاجة من خاصة ماله ليعطيها لغيره يجد فى ذلك مشقة ولا يقبل عليها ، لكن الكريم عنده بسط يد ، وأريحية . ويرتاح للمعروف ، إذن فالبخل معناه مشقة الإعطاء ، وقد يتعدى البخل ويتجاوز الحد بضن الشخص بالشىء الذى لا يضر بذله ولا ينفع منعه ؛ لأنه لا يريد أن يعطى . وهذا البخل والشح يكون فى نفس البخيل ؛ لأنه أولاً قد بخل على نفسه ، فإذا كان قد بخل على نفسه ، أتريد أن يجود على الناس ؟ .

والشاعر يصور بخيلاً اسمه « عيسى » ويريد أن يذمه؛لأنه بخيل جداً ؛ ويظهر صورة البخل بأنه ليس على الناس فقط بل على نفسه أيضاً ، فيما لا يضر بذله ولا ينفعه منعه . ومادام يقتر على نفسه فسيكون تقتيره على غيره أمراً متوقعاً :

يقتر عيسى على نفسه ولیس بباق ولا خالد
فلو يستطيع لتقتيره تنفس من منخر واحد

إنه بخيلٌ لدرجة أنه يفكر لو استطاع أن يتنفس من فتحة أنف واحدة لفعل ؛ حتى لا يتنفس بفتحتى أنفه .

والشاعر الآخر يأتى بصورة أيضاً توضح كيف يمنع البخيل نفسه من الأريحية